الفأل والشؤم
بين الأعراف والشريعة الإسلامية
في ضوء الأحاديث النبوية الشريفة

إعداد

د. شيحة حمد عبد الله العطية

مدرس بقسم أصول الدين

كلية الشريعة- جامعة قطر

١٤٢٠ هجرية

في هذا البحث

الفأل والشؤم في اللغة وفي الاستعمال العرفي.

تأثير التفاؤل والتشاؤم في الطباع البشرية.

مثيرات التفاؤل والتشاؤم في الماضي والحاضر وموقف الإسلام منهما.

تحليل النصوص الموهمة للتشاؤم.

الأضرار المترتبة على التشاؤم بالنسبة للفرد والمجتمع.

علاج التشاؤم في ضوء علم النفس والشريعة الإسلامية.

النتيجة وخلاصة البحث.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه ومن اتبعه إلى يوم الدين.. أما بعد:

فقد كثر في أيامنا هذه ما يعرف بالشعوذة والتكهن، وادعاء معرفة الغيب وإثارة النفوس، والتلاعب بها وبأهوائها، وكثر الضرب بالرمل وقراءة الفنجان، والتنجيم، وقراءة الكفّ، ونشر الأبراج في الصحف، وما يعرف (ببختك اليوم) أو (حظك السعيد)، وفي هذا كله ترغيب وترهيب، وفأل وشؤم، وما يدعو إلى الإقدام وما يدعو إلى الإحجام، وما يبعث على اطمئنان النفس، أو رضاها وقلقها وخوفها وانزعاجها، مما يتأثر به الإنسان طيلة يومه، وقد يصاحبه هذا الشعور المحبط أيامًا أو شهورًا في بعض الأحيان.

لهذا كان هذا البحث الموجز في الفأل والشؤم بين الأعراف والشريعة الإسلامية في ضوء الأحاديث النبوية الشريفة، وقد رتبت البحث على النحو التالي:

١- معنى التفاؤل والتشاؤم في اللغة وفي والاستعمال العرفي.

٢- تأثير التفاؤل والتشاؤم في الطباع البشرية.

٣- مثيرات التفاؤل والتشاؤم في الماضي والحاضر وموقف الإسلام منهما.

٤- تحليل بعض النصوص الموهمة للترخيص في التشاؤم من بعض الأمور.

٣- الأضرار المترتبة على التشاؤم على صعيد الفرد والمجتمع.

٦- علاج التشاؤم في ضوء علم النفس والشريعة الإسلامية.

٧- الخاتمة ونتيجة البحث.

والله من وراء القصد، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

الباحثة

الفأل والشؤم في اللغة وفي الاستعمال العرفي:

الفأل في كتب اللغة: ضد الطيرة والجمع فئول، وقال الجوهري: أفؤل، وأنشد للكميت:

ولا أسأل الطير عما تقول ولا تخالجني الأفؤل

وتفاءلت به وتفأَّل به، وقال ابن الأثيرة: يقال: تفاءلت بكذا، وتفألت بكذا على التخفيف والقلب، قال: وقد أولع الناس بترك همزه تخفيفًا.

والفأل: أن يكون الرجل مريضًا فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالة، فيسمع آخر يقول واجد، فيقول: تفاءلت بكذا، ويتوجه له في ظنه كما سمع أنه يبرأ من مرضه أو يجد ضالته(١).

والعرف: يَستعمِل الفأل فيما يدخل على الإنسان سرور أو بهجة تدفعه إلى العمل والانشراح، كما هو في اللغة على سبق، فالكلمة الحسنة في الطبيعة البشرية تدخل البهجة والإقبال على الأعمال، ومثل الكلمة الحسنة المنظر الجميل، والخضرة والماء، والبياض والمخلوقات التي يحبها الإنسان.

الشؤم في اللغة وفي الاستعمال والعرف:

أما الشؤم في اللغة: فهو خلاف اليمن، ورجل مشئوم على قوم، والجمع مشائيم، وقد شئم عليهم، وشأمهم وما أشأمه، وقد تشاءم به، والمشأمة الشؤم، ويقال: شأم فلان أصحابه إذا أصابهم شؤم من قبله، والأشائم نقيض الأيامن(٢).

أما في الاستعمال العرفي: في الانقباض والكراهية والبغض لشيء تتأثر به النفس إحجامًا عن مشروع، أو عن عمل، ونفورًا عن المضي فيه.

والطيرة في الأصل: تشمل التفاؤل والتشاؤم؛ لأن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على أمر يثيرون الطير ويهيجونه فإذا مضى يمينًا تفاءلوا، وإذا مضى شمالًا تشاءموا، إلا أنه لما رخص الشرع في التفاؤل؛ لأنه لا يعطل المصالح انصرف لفظ الطيرة إلى التشاؤم.

فالتطير والتشاؤم بمعنى واحد شرعًا وعرفًا غالبًا، وبعض الاستعمالات الشرعية تجعل الفأل نوعًا من الطيرة، كما هو الأصل في اللغة، وذلك كحديث: " لا طيرة وخيرها الفأل"(٣).

---

(١) لسان العرب لابن منظور، جـ ١٠/ ١٦٧، مؤسسة التاريخ العربي، ط ١٩٨٨م.

(٢) المصدر السابق، جـ ٧/٧.

(٣) رواه البخاري في كتاب الطب (باب: الطيرة) جـ ٧/ ٢٧، ط إستنبول، ورواه مسلم في كتاب السلام (باب الطيرة والفأل)، جـ٢/ ١٧٤٥ برقم (٢٢٢٣).

قال الكرماني وغيره: هذه الإضافة "خيرها" تشعر بأن الفأل من جملة الطيرة[١]، وقال النووي: الفأل يستعمل فيما يسوء وفيما يسر، وأكثره في السرور، والطيرة ليتكون إلا في الشؤم، وقد تستعمل مجازًا في السرور[٢].

وعقب عليه الحافظ ابن حجر بقوله: كأن ذلك بحسب الواقع، أما في الشرع فخص الطيرة بما يسوء، والفأل بما يسر، ومن شرطه ألا يقصد إليه فيصير من الطيرة[٣].

وظاهر قوله في الحديث: "وخيرها الفأل" يوحي بأن في الطيرة خيرًا فيحمل على الفأل والتشاؤم.

وسواء أكان الفأل نوعًا من الطيرة، أم لم يكن فإنه نقيض الشؤم لغة وشرعًا وعرفًا، وهو ما اعتمدناه في بحثنا هذا.

تأثير التفاؤل والتشاؤم في الطباع البشرية:

وهو الملاحظ والمحسوس في الطباع البشرية، أن التفاؤل والفأل محبوب مرغوب؛ لأنه يسر ويؤثر في النفس انشراحًا، ولذلك جاء في الحديث "ويعجبني الفأل: الكلمة الحسنة، الكلمة الطيبة"[٤]، وفي رواية "لا طيرة وخيرها الفأل"، وفي رواية "ولا طيرة وأحب الفأل الصالح"[٥].

قال ابن بطال: جعل الله من فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها، كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافي، وإن كان لا يملكه ولا يشربه[٦].

وقد أخرج الترمذي وصححه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج لحاجته يعجبه أن يسمع: يا نجيح يا راشد»[٧].

وقال الحليمي: كان صلى الله عليه وسلم يعجبه الفأل؛ لأنه حسن ظن بالله عز شأنه، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال[٨].

وأما تأثير التشاؤم فهو الانقباض والخوف والإحجام، وذلك أن النفس البشرية إذا رأت أو سمعت

---

(١) فتح الباري، جـ ١٠/ ٢١٤.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، جـ ١٤/ ٢١٩، دار الفكر، ط ١٩٨١م.

(٣)فتح الباري، جـ ١٠/ ٢١٥.

(٤)أخرجه البخاري في كتاب الطب (باب: الطيرة)، جـ ٧/ ٢٧، ومسلم في كتاب السلام (باب: الطيرة والفأل)، جـ ٢/ ١٧٤٦، برقم (٢٢٢٤).

(٥) رواه مسلم في كتاب السلام (باب: الطيرة والفأل) جـ ٢/ ١٧٤٦.

(٦) فتح الباري، جـ ١٠/٢١٥.

(٧) في كتاب السير (باب: ما جاء في الطيرة)، جـ ٤/ ١٦١، برقم (١٦١٦).

(٨) فتح الباري، جـ ١٠/ ٢١٥.

ما يسمى، أثر ذلك على تصرفاتها وأعمالها.

والواقع أن التفاؤل والتشاؤم تأثر نفسي بما لا مدخل له في الإيجاد والوقوع: خسارة أو ضياعًا- والتأثر بما لا دخل له في الإيجاد والوقوع ليس من شأن العقلاء، لكنه رخص في الفأل؛ لأنه يدفع إلى العمل، ولا يترتب عليه ضرر، بخلاف التشاؤم الذي يدفع إلى الإحجام، ويترتب عليه أضرار، وقد روى الطبري عن عكرمة، قال: كنت عند ابن عباس فمر طائر فصاح، فقال رجل: خير خير، فقال ابن عباس: ما عند هذا خير ولا شر[١]. وفي الحديث "من تكهن أو رده عن سفر تطير فليس منا"[٢]، وعند ابن حبان عن أنس "لا طيرة والطيرة على من تطير".

وعند الطبراني عن أبي الدرداء "لن ينال الدرجات العلا من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر تطيرًا[٣]. وعند أحمد في «مسنده» عن ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»[٤].

مثيرات التفاؤل والتشاؤم في الماضي والحاضر وموقف الإسلام منها:

حواس الإنسان هي الموصلات الأولية للمعلومات الحسية، فإن أوصلت محبوبا أثر في النفس تفاؤلًا، وإن أوصلت مبغوضًا أثر في النفس نفورًا وتشاؤما، فالسمع يوصل الأصوات، والعين توصل المرئيات، والشم يوصل المشمولات، ولا تقتصر! ثغرات التفاؤل، والتشاؤم على الكلمة الحسنة، وإن كان السمع والبصر أكثر الحواس توصيلًا للمعلومات المحسوسة، فكان الكلام عنهما أكثر من الكلام عن غيرها في مثيرات التفاؤل والتشاؤم في الحديث وفي العرف على السواء، وسنقتصر على بعض الأمثلة من مثيرات التفاؤل والتشاؤم عند العرب قبل الإسلام وبعده، وهي اعتقادات أن الإنسانية كانت منذ بدء الخليقة تتأثر بمؤثرات التفاؤل والتشاؤم على نحو ما، أو تستجيب لهذه المؤثرات، وإن لم يصل إلينا ذلك على وجه التحقيق.

كان العرب في الجاهلية يعتقدون أن ما يكون، أو ما يسمعون مما يسر أو يرى يؤثر بذاته فيما يترتب عليه، وبعبارة أخرى كانوا يعتقدون بتأثير الأسباب في مسبباتها تأثيرًا مباشرًا طبيعيًّا لا يتخلف، ناسين أو متناسلين، أن الله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها جميعًا، وأنه الفأل الحقيقي لكل ما يقع في الكون، فلما جاء الإسلام كانت رسالته الأولى توجيه البشرية إلى خالقها

---

(١)المرجع السابق

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ٣/ ٣٧٥، برقم (١١٣٤) عن أبي الدرداء مرفوعًا.

(٣)أخرجه ابن حبان في صحيحه ترتيب ابن بلبان- جـ١٣، برقم (١٦٢٣).

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع، ٥/ ١١٨ كتاب الطب (باب: فيمن أتى كاهنًا أو عرافًا)، وقال رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات.

ومحييها ومميتها، إلى الفأل الحقيقي لما يجري من أن أمورها.

فكانوا مثلًا يعتقدون أن العدوى تتم باتصال السليم بالمريض، وتنقل المرض بذاته إلى السليم، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: " لا عدوى" وقال لهم تارة أخرى لإقناعهم بذلك: "فمن أعدى الأول"، وهو بذلك يؤكد لهم أن الأسباب قد تتخلف عنها المسببات.

وكما أن النار كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم، فإن من الممكن أنه يختلط السليم بالمريض ولا تنتقل إليه العدوى لما قد يكون من حصانة ومناعة عند السليم، كما نعلم أن المرض المعدي قد يصيب السليم بدون اختلاطه بمريض بهذا المرض، فإرادة الله تعالى هي الأساس في العدوى، كما أنها هي الأساس في كل الموجودات في الكون، وكانوا في الجاهلية يتطيرون ويتشاءمون ويعتقدون في المتشاءم منه أنه يوجد الشر والضر بنفسه فقال لهم صلى الله عليه وسلام: «لا طيرة» أي ولا أثر لما تتشاءمون منه فلا تتشاءموا، وقال صلى الله عليه وسلم: " لا شؤم"، وقال: "لا عدوى ولا طيرة".

وكانوا يعتقدون أن في بطن الإنسان حية كبيرة تتلوى إذا جاع، تطلب الطعام ويسمونها: صفر، فقال لهم صلى الله عليه وسلم «لا صفر» أي لا توجد في واقع الأمر حية بهذا الاسم.

وكانوا يعتقدون بأن الغيلان في الفلوات والصحاري- وهي من جنس الشياطين- تتراءى للناس، وتتغول تغولًا- أي تتلون تلونًا وتتشكل تشكلًا فتضلهم عن الطريق فتهلكهم، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: " لا غول"[(١)].

وكانوا يعتقدون أن المطر حين يسقط إنما يرتبط بسقوط نجم أو بطلوع نجم في السماء، ويقولون: مطرنا بنوء كذا. فقال صلى الله عليه وسلم: "ولا نوء"[(٢)]. وكانوا يعتقدون في التِّوُلَة: والخرز والأحجبة التي تعلق في صدر الصبي ليعيش، أو في عنق المرأة لتجلب محبة زوجها، أو لتحفظها من العين والحسد، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: " لا تولة"[(٣)].

عقائد فاسدة في نفوس أمة الدعوة، تحتاج إلى تصحيح ليحافظ الإنسان على نفسه منها في دينه ودنياه، ولا يخاف الشر والضرر إلا مما فيه الشر والضرر بيقين، فإذا جاء الإسلام بما يصحح الأوضاع، فإنما ليغرس في نفوس أبنائه صحة الاعتقاد، وينأى بعقيدتهم عن الخيالات والخرافات.

---

(١) رواه مسلم في كتاب السلام (باب: لا عدوى ولا طيرة..) جـ٢/ ١٧٤٢- ١٧٤٣ برقم (٢٢٢٠، ٢٢٢٢).

(٢) المصدر السابق رقم (٢٢٢٠).

(٣) رواه أبو داود في كتاب الطب (باب: في تعليق التمائم) جـ٤/ ٢١٢، برقم (٣٨٨٣)- وابن ماجه في الطب برقم (٣٥٣٠)-وأحمد في مسنده ١/ ٣٨١.

وإذا عدنا للتفاؤل والتشاؤم، فقد كان للعرب قبل الإسلام مثيرات كثيرة أشهرها: ما عرف بالطيرة- بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن- وأصلها منسوب إلى الطير، كانت العرب تتفاءل بتيامن الطير، وتتشاءم باتجاهها شمالًا، وكان من أراد منهم البدء في عمل هام، أو مشروع كبير أو سفر، يستوثق أولًا من نجاحه بأن يزجر الطير الذي يلاقيه، فإذا انصرف إلى جهة اليمين تفاءل وشرع في عمله، وإذا انصرف إلى جهة غير جهة اليمين تشاءم ورجع عن مشروعه.
وقيل: معنى جهة اليمين أي ما ولاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلى يمينك ويسمونه (السانح) وكانوا يتفاءلون به، وما يمر عن يمينك إلى يسارك فهو (البارح) ويتشاءون به، ولما كان الطير في نفسه لا يعلم خيره من شره، فلا يقصد بفعله خير ولا شر بالنسبة لغيره من المخلوقات، فليس في توجهه يمينًا أثر في خير، وليس في توجهه شمالًا أثر من شر، وإنما هو شيء يؤثر في النفس فقط، وفي الحديث عن معاوية بن الحكم السلمي قال: "قلت: يا رسول الله أمور كنا نصنعها في الجاهلية: كنا نأتي الكهان، قال: "فلا تأتوا الكهان"، قال: قلت: كنا نتطير، قال: "ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم"[1] ومعناه: أن التطير والتشاؤم شيء يقع في أنفسكم، ولا عتب عليكم في ذلك، فإنه غير مكتسب لكم فلا تكليف به، ولكن لا تمتنعوا بسببه عن التصرف في أموركم، فهذا هو الذي تقدرون عليه، وهو مكتسب لكم فيقع به التكليف.
ومن الطيرة أيضًا الكلمة السيئة يسمعها أحدهم عند خروجه إلى عمل مهم فيتشاءم ويرجع عن عمله.
ومنها صوت طائر كالبومة ونحوها كالغراب الأسود، يسمعه أحدهم فيتوجس شرًّا؛ لأن بعض الحوادث أو التجارب قضت بأن صوته يعقبه مكروه، ومنها أنهم كانوا يتشاءمون برؤية هذا الطير أو ذلك، حتى كانوا يعتقدون أنه إذا سقط على دار أحدهم فمعناه: أنه نعى إليه نفسه أو بعض أهله.
وقد كان بعض العرب يتشاءمون من المرأة والفرس والدار.. وسأتعرض له بعد قليل نظرًا لطول الكلام عليه.
ومن هنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغير الأسماء الموهمة للشر بأسماء حسنة؛ لئلا يقع في نفس من يناديه، أو من يسمع هذا القسم تشاؤمًا أو خوفًا أو بغضًا، مع الإيمان بأن هذه الأسماء لا تأثير لها في حقيقة الأمر، وإنما هو علاج من الشرع لبعض أصحاب النفوس الضعيفة من الناس، وقد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الأسماء القبيحة إلى أسماء

---

(١)رواه مسلم في كتاب السلام (باب: تحريم الكهانة..) جـ٢ / ١٧٤٨، ١٧٤٩ برقم (٥٣٧).

حسنة.

فعن عائشة رضي الله عنها " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يغير الاسم القبيح"[١]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير اسم عاصية، وقال: "أنت جميلة "[٢].

وقد استمرت المؤثرات في العصور التالية على النحو الذي كانت عليه فيما سبق، وإن اختلفت أشكالها وألوانها:

فقد نجد في بعض الصحف بابًا أو عمودًا خاصًا بقسم الأبراج، ومن ولد في شهر كذا كارن كذا، ومن ولد في شهر كذا كان كذا.. وينشر ذلك يوميًّا بما يسيء أو يسر، وقد يذكر البرج يومًا بما يسيء، وغدًا بما يسر.

وهناك قراءة الفنجان للأخبار بغيب يفرح أو يحزن، ومثله ضرب الرمل والودع وقراءة الكف، وهناك التفاؤل بالبياض والخضرة، والتشاؤم بالسواد والزرقة، وهناك التشاؤم برؤية المناظر القبيحة مطلقًا، والتفاؤل برؤية المناظر الحسنة مطلقًا، وهناك الإيحاء الخارجي، وهو إيهام السامع بما لا يسره فيقع في نفسه السوء ويترقب الشر ويتوقعه، والعكس بالنسبة للفأل والتفاؤل.

فلو أن طبيبًا استقبل مريضًا بقوله: إن لونك ممتقع وأعصابك خائرة، فإن هذا الشخص قد يعتريه المرض ولو لم يكن مريضًا، ولو جاء مريض ضعيف متعب حقيقة، فقال له: أنت سليم صحيح ولا شيء فيك، فقد يعود صحيحًا سليمًا بالفعل، فالتأثير النفسي بالخير أو بالشر، والإيحاء الخارجي بهما مؤثر ولا شك على الطبيعة والجوارح البشرية تأثيرًا ملحوظًا، ولهذا جاء في الحديث: "بشروا ولا تنفروا"[٣].

تحليل لبعضه ما يوهم التشاؤم:

مما سبق يتبين أن الشريعة الإسلامية تدعو إلى النهي عن التشاؤم بعامة، وترخص في الفأل مطلقًا، ومع هذا فقد ورد في بعض الأحاديث ما يدل على وجود التشاؤم في المرأة والدار والفرس.. ووردت النصوص الحديثية في هذا المجال على النحو التالي:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله على الله عليه وسلم: "إنما- الشؤم في

---

(١)أخرجه الترمذي في كتاب الأدب (باب: ماجا في تغيير الأسماء) برقم ٢٨٣٨، ٢٨٣٩)، وقال: حسن غريب.

(٢) رواه مسلم في كتاب الآداب (باب: استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن)، ص/ ١٦٨٦، برقم (٢١٣٩)- ورواه أبو داود في سننه برقم (٤٩٥٢)- وأحمد في مسنده ٢/ ١٨- وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢١٣).

(٣) رواه مسلم في كتاب الجهاد (باب: في الأمر بالتيسير..) جـ٢/ ١٣٥٨ برقم (٧٣٢).

ثلاث الفرس والمرأة والدار"[١].

وعنه مرفوعًا بلفظ: "الشؤم في ثلاث، في المرأة والدار والدابة"[٢].

وعنه مرفوعًا أيضًا "وإن كانت الطيرة في شيء حق ففي المرأة والدار والفرس"[٣]، وفي رواية عنه أيضًا مرفوعة بلفظ: «إن يك من الشؤم شيء حق ففي الفرس والمرأة والدار "[٤].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعًا «إن كان الشؤم في شيء، ففي الفرس والمسكن والمرأة "[٥].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه مرفوعًا: "إن كان- يعني الشؤم في شيء- ففي المرأة والفرس والمسكن"[٦].

وعن سعد بن أبي وقاص رفعه: «وإن يكن التطير في شيء فهو في الفرس والمرأة والدار"[٧].

وعن سعد بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا " إن يكن الشؤم في شيء ففي المرأة والدابة والدار"[٨] .

وعن جابر رضي الله عنه مرفوعًا: " إن كان في شيء- يعني الشؤم- ففي الربع والخادم

---

(١)أخرجه البخاري في كتاب الطب (باب: لا عدوى) جـ٧/ ٣١، برقم (٥٧٧٢)- ومسلم في كتاب السلام (باب: الطيرة والفأل..) رقم (١١٦)- والطحاوي في معاني الآثار، جـ ٤/ ٣١٣.

(٢)أخرجه البخاري في كتاب الطب (باب: لا عدوى) جـ ٧/١٢٧- وفي النكاح ٧/ ١٠ (باب: ما يتقى من شؤم المرأة)، ومسلم في كتاب السلام (باب: الطيرة والفأل..) جـ ٢/ ١٧٤٧. برقم (٢٢٢٥)- وأبو داود في الطب، جـ ٤/ ٢٣٧، برقم (٣٩٢١)- والترمذي في كتاب الأدب، حديث رقم (٢٨٢٥) (باب في الشؤم)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في الخيل حديث رقم (٣٥٩٨) (باب: شؤم الخيل).

(٣)أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٣١٤.

(٤) رواه مسلم في كتاب السلام (باب: الطيرة والفأل..) جـ٢/ ١٧٤٨- وأبو داود في كتاب الطب جـ٤ / برقم ( ) وأحمد في مسنده جـ ١٧/ ٢٠٠- الفتح الرباني.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب السلام (باب: الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم) جـ ٢/ ١٧٤٨ برقم (١١٨) ورواه الطحاوي في شرح معاني الآثار جـ ٤/ ١٣٣.

(٦) رواه مسلم كتاب السلام (باب الفأل والطير..) جـ٢/ ١٧٤٨ برقم (٢٢٢٦) ومالك في كتاب الاستئذان جـ ٢/ ٩٧٢ برقم (٢١) والطبراني في المعجم الكبير ٦/ ١٣٢ برقم (٥٧٤٧، .٥٧٧، ٥٨٠٣، ٥٧٠٧..)، وأحمد في مسنده جـ ١٧/ ٢٠٠ الفتح الرباني.

(٧) رواه أحمد في مسنده جـ ١/ ١٧٤، ١٨٠- وأبو يعلى في مسنده جـ ٢/ ١٠٦، ١٧٠، برقم (٧٦٦، ٧٩٨)، والبيهقي في السنن الكبرى جـ٨/ ١٤٠ في كتاب القسامة.

(٨) رواه أحمد في مسنده جـ ١٧/ ٢٠٠- الفتح الرباني- وقال الساعاتي: سنده صحيح- ورواه أبو داود في كتاب الطب (باب: في الطيرة).

والفرس"[١] .

والمراد من (الدار) في هذه الروايات: المسكن ولو حجرة أو خيمة أو عشة، ومن (المرأة) في هذه الأحاديث الزوجة، كما أن المراد من (الفرس): المركب، ووسيلة الانتقال، ولو كانت سيارة أو باخرة أو طائرة أو قطارًا كما يراد من (الربع): بسكون الباء- الموضع الذي ينزل فيه صاحبه، ويطلق على الدار وما حولها، ومن (الخادم): ما يعم الذكر والأنثى والمملوك وغيره.

وقد حاول بعض العلماء **الجمع بين هذه الأحاديث**، وبين وما ورد من أحاديث النهي عن التشاؤم **فذهبوا في مذاهب شتى:**

المذهب الأول: أن هذه الأحاديث تتحدث عن العادة، وليس عن الحقيقة، وكأنها تقول: الناس يتشاءمون عادة من هذه الأمور لطول ملازمتها لهم، وفي هذا يقول ابن قتيبة: والمعنى أن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون بكثير من الأمور، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عنها، وأعلمهم أن لا طيرة، فلما أبوا أن ينتهوا بقيت الطيرة في هذه الأشياء[٢] .

فابن قتيبة يعني: أن هذه الأشياء أكثر ما يتطير به الناس، وأنها بقيت في عاداتهم بعد أن تخلوا عن كثير غيرها، فكأن الحديث يقول: الشؤم والتشاؤم الباقي المستقر عند بعض الناس إنما هو في المرأة والدار والفرس والخادم، فهو إخبار عن واقع، هو بقاء التشاؤم عند بعض الناس من هذه الأمور، وليس فيه إقرار أو سماح به أو ترخيص فيه... وقريب من هذا ما ذهبت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها، ففي مسند الطيالسي: "قيل لعائشة: إن أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشؤم في ثلاثة.."، فقالت: لم يحفظ أنه دخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قاتل الله اليهود يقولون: الشؤم في ثلاثة فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله"[٣] .

وروى أحمد[٤] وابن خزيمة[٥] والحاكم[٦] : "أن رجلين من بني عامر دخلا على عائشة فقالا: إن أبا هريرة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الطيرة في الفرس والمرأة والدار "

---

(١) رواه مسلم في كتاب السلام (باب: الطيرة والفأل..) جـ٢ / ١٧٤٨ برقم (٢٢٢٧)- والطحاوي في شرح معاني الآثار جـ٤/ ٣١٣.

(٢) فتح الباري جـ٧/ ٦١.

(٣) مسند الطيالسي، ص/ ٢٥، برقم (١٥٣٧).

(٤) في مسنده جـ٦ / ١٥٠، ٢٤١، ٢٤٦ .

(٥) رواه ابن خزيمة كما جاء في الفتح ٦/ ٤٦.

(٦) في مسند الحاكم جـ٢/ ٤٧٩. وصححه ووافقه الذهبي.

فغضبت غضبًا شديدًا وقالت: ما قال، وإنما قال: "إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك".
فمعنى الحديث على هذا: إنما الشؤم الباقي بقدر كبير في نفوس الناس وعاداتهم إنما هو في هذه الأمور، وإن يكن الشؤم في شيء ثابتًا وباقيًا في عادات الناس ونفوسهم ففيها يكون. فالأحاديث سيقت لبيان اعتقاد الناس في ذلك، وليس فيها إقرار منه صلى الله عليه وسلم لها[١] .
وهاجم ابن العربي بشدة هذا التوجيه فقال: هذا جواب ساقط؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يبعث ليخبر الناس عن معتقداتهم الماضية والحاصلة، وإنما بعث ليعلمهم ما يلزمهم أن يعتقدوه[٢] .
والتحقيق كما قال صاحب فتح المنعم: أن هذه المهاجمة العنيفة لا مبرر لها فقد يخبر صلى الله عليه وسلم بواقع يريد تغييره[٣] ، ويشير إلى هذا التحقيق المهلب إذ يقول: إن المخاطب بقوله: الشؤم في ثلاثة.." من التزم التطير ولم يستطع صرفه عن نفسه، فقال لهم: إنما يقع ذلك في هذه الأشياء التي تلازم في غالب الأحيان، فإذا كان كذلك فاتركوها عنكم لا تعذبوا أنفسكم بها، ويؤكد ذلك تصدير الحديث بنفي الطيرة[٤] ، واستدل لذلك بما أخرجه ابن حبان عن أنس رفعه: " لا طيرة والطيرة على من تطير، وإن تكن في شيء ففي المرأة.." الحديث[٥] .
ويدافع الحافظ ابن حجر عن أبي هريرة في روايته لهذا الحديث فيقول: لا معنى لإنكار ذلك على أبي هريرة، فقد وافقه آخرون من الصحابة في رواية هذا الحديث، فالحديث مروي عن ابن عمر، وعن سهل بن سعد، وعن جابر[٦] .
والمذهب الثاني: أن الأحاديث على ظاهرها تثبت الشؤم في هذه الأمور، والشؤم- كما نعلم- هو توقع حصول مكروه، أو الخوف من حصوله في المستقبل نتيجة لرؤية شيء أو سماع شيء أو نحو ذلك، وهذه الأمور تورث ذلك، والحديث يرخص ويبيح أن يقع في النفس هذا الخوف وهذا التوقع في هذه الأمور دون غيرها، مع اعتقاد أن الفأل الحقيقي هو الله تعالى، وأن المدبر لأمور المستقبل هو الله تعالى، ويبيح لمن وقع في نفسه شيء منها أن يتركه ويستبدل غيره به، وذلك إذا كان في واقعه وحاله كثير الشر والأذى، فيتوقع دوامه في الحال والاستقبال، مثل ما

---

(١) فتح المنعم جـ ٩/ ٨٩، ٨٠- بتصرف يسير- للدكتور/ موسى شاهين لاشين- وراجع أيضًا فتح الباري جـ ٦/ ٦١.
(٢) انظر فتح الباري جـ٦/ ٦١.
(٣) فتح المنعم جـ ٩/٩٠.
(٤) فتح الباري جـ ٦/ ٦٣.
(٥) في صحيحه- ترتيب ابن بلبان- جـ ١٣/ رقم (٦١٢٣).
(٦) فتح الباري جـ ٦/ ٦٢.

وقع منه في الماضي والحاضر، ويتشاءم من رؤيته، أو من وجوده في حوزته، ويقع في نفسه الخوف من آثاره عليه في المستقبل.

قالوا: فشؤم المرأة في سلاطة لسانها، أو عقمها أو تعرضها للريب، وشؤم الدار: ضيقها وفساد هوائها بضيق فتحاتها، أو قذارة ما حولها، أو سوء جوارها، وقيل كذلك: وبعدها عن المسجد، وقربها من الموبقات[١] . وشؤم الفرس: عدم استعمالها في سبيل الله وحرانها وغلاء ثمنها، وكذا السيارة مثلًا شؤمها بكثرة اختلالها وعطلها وكثرة نفقاتها وأخطارها، وشؤم الخادم: من سوء خلقه وقلة تعهده لما فوض إليه، وضعف أمانته وكثرة كذبه[٢] .

وقد أسند هذا الرأي إلى الإمام مالك، فقد روى أبو داود عن ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن هذه الأحاديث فقال: "كم دار سكنها ناس فهلكوا"[٣] .

قال: المازري: فمالك يحمل الأحاديث على ظاهرها، والمعنى: أن قدر الله تعالى ربما اتفق مع وقوع ما يكره عند سكنى الدار، فتصير في ذلك كالسبب وليست كذلك فتسومح في إضافة الشؤم إلى الدار اتساعًا[٤] .

وقال ابن العربي: لم يرد مالك إضافة الشؤم إلى الدار، وإنما هو عبارة عن جري العادة فيها، فأشار إلى أنه ينبغي للمرء الخروج عنها صيانة لاعتقاده عن التعلق بالباطل»[٥] .

فالمازري وابن العربي يحاولان ربط ما يحدث من المكاره حين التشاؤم بهذه الأمور بأنه بقدر الله تعالى، وابن ارتباطه بالتشاؤم سبب عادي قد يتخلف كغير التشاؤم من الأسباب[٦] ، ولهذا يقول الحافظ ابن حجر: وما أشار إليه ابن العربي في تأويل كلام مالك نظير الأمر بالفرار من المجذوم مع صحة نفي العدوى، والمراد بذلك حسم المادة وسد الذريعة؛ لئلا يفارق شيء من ذلك القدر، فيعتقد من وقع له دللت أنه من العدوى أو من الطيرة، فيقع في اعتقاد ما نهى عن اعتقاده، فأشير إلى اجتناب مثل ذلك. والطريق في اعتقاده فيمن وقع له ذلك في الدار مثلًا أن يبادر إلى التحول منها، لأنه متى استمر فيها ربما حمله ذلك على اعتقاد صحة التطير

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم جـ١٤/ ٢٢١،٢٢٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) في كتاب الطب (باب: في الطيرة) جـ ٤/ ٢٣٧- وراجع فتح الباري جـ ٦/ ٦٢.

(٤) فتح الباري جـ ٦/ ٦٢.

(٥) المرجع السابق.

(٦) فتح المنعم جـ ٩/ ٩١.

والتشاؤم[١] .

ويؤكد هذا التوجيه ما أخرجه أبو داود[٢]، والبخاري في الأدب المفرد[٣]عن أنس: " قال رجل: يا رسول الله، إنا كنا في دار كثير فيها عددنا وأموالنا، فتحولنا إلى أخرى فقل فيها ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: "ذروها ذميمة".

قال ابن العربي: وإنما أمرهم بالخروج منها لاعتقادهم أن ذلك منها، وليس كما ظنوا، لكن الخالق جل وعلا جعل ذلك وفقًا لظهور قضائه، وأمرهم بالخروج منها؛ لئلا يقع لهم بعد ذلك شيء فيستمر اعتقادهم، ووصفها بأنها ذميمة، وذكرُها بقبيح ما وقع فيها سائغ من غير أن يعتقد أن ذلك كان منها، ولا يمتنع ذم محل المكروه، وإن كان الشر ليس فيه شرعًا، كما يذم العاصي على معصيته وإن كان ذلك بقضاء الله تعالى[٤] . وقال الخطابي: معناه إبطال مذهب الجاهلية في التطير، أي اعتقاد أن الدار تضر وتنفع بذاتها، فكأنه قال: إن كان لأحدكم دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس يكره سيره فليفارقه[٥] .

المذهب الثالث: لتوجيه هذه الأحاديث- اعتماد رواية التقييد بالشرط: "إن يكن من الشؤم شيء حق ففي الفرس والمرأة والدار"، "إن كان الشؤم في شيء ففي الفرس والمسكن والمرأة "، " إن كان في شيء، ففي الربع وفي الخادم والفرس".

ويكون من قبيل التعليق على المستحيل، فيكون جواب الشرط مستحيلًا كقوله تعالى: {فإن استقر مكانه فسوف تراني} سورة الأعراف، آية (١٤٣)، أي لكنه لن يستقر مكانه فلن تراني. والمعنى هنا: إن كان الشؤم في شيء ففي المرأة والفرس والدار، لكن الشؤم ليس في شيء عملًا بحديث "لا طيرة ولا شؤم فهو ليس في المرأة ولا الفرس ولا الدار"[٦] .

ومن المعلوم أن نفي الشرط الأعم " إن كان في شيء" معناه أن الشؤم ليس في شيء يستلزم نفي جواب الشرط على معنى أن الشؤم ليس في المرأة والفرس والدار، وتحمل الروايات المطلقة على الروايات المقيدة، ويكون هذا النفي تصحيحًا لما كانوا عليه من الاعتقاد الباطل.

المذهب الرابع: أن المراد بالشؤم هنا النكد والشقاء والتعاسة والمتاعب، وهذه الأمور هي أكبر

---

(١) فتح الباري جـ ٦/ ٦٢،

(٢) في كتاب الطب (باب: ما جاء في الطيرة) جـ ٤/ ٢٣٩ برقم (٣٩٢٤).

(٣) رقم الحديث (١٣٢)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٧٩٠).

(٤) فتح الباري جـ ٦/ ٦٢.

(٥) معالم السنن- حاشية سنن أبي داود- جـ٤/ ٢٣٩- ط إستنبول- وراجع أيضًا فتح الباري جـ٦/ ٦٢.

(٦) فتح المنعم جـ ٩/ ٩١- بتصرف يسير.

مصادر الشقاء في حياة الإنسان لملازمتها له أكثر من غيرها، ويختص في كل نوع منها ببعضه وليس بجميعه، فمصدر شقاء بعض الناس زوجته، ومصدر شقاء بعضهم مسكنه، ومصدر شقاء الآخرين مركبه وسيارته[1]إلى غير ذلك.

المذهب الخامس: هو كالمذهب الرابع، إلا أن في الكلام اكتفاء بذكر أحد الطرفين مع إرادتهما معًا كقوله تعالى: {سرابيل تقيكم الحر} سور النحل آية ٨٧ أي والبرد، فحذف البرد اكتفاء بذكر الحر، والمراد الحر والبرد.

وهنا المراد: أن هذه الأمور مصدر الشقاء والسعادة، فهو كحديث سعد بن أبي وقاص رفعه "من سعادة المرء المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الهنيء، ومن شقاوة المرء، المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء" ورواه أحمد[2] ، ويؤيد هذا المذهب ما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم: " لا شؤم وقد يكون اليمن في ثلاث، في المرأة والفرس والدار"[3] ، وقوله صلى الله عليه وسلم: "حسن الملكة نماء، وسوء الخلق شؤم[4] . وعند البيهقي "شؤم المرأة إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس إذا لم يغز عليه، وشؤم الدار جارها"[5] .

وهذه التوجيهات كلها مقبولة بوجه عام، وأقربها قبولًا المذهب الخامس، لأن فيه جمعًا بين الأحاديث الواردة في موضوع واحد، أو أن في هذا الموضوع بخصوصه فهما عميقًا لمدلول التشاؤم الوارد في الطائفة الأولى من هذه الأحاديث، ولا شك في أن هذا المذهب أو هذا التفسير يرفع في الوقت نفسه من قيمة هذه الأمور الثلاثة، بل يجعلها أهم شيء في حياة الإنسان، بوصفها مصدر شقائه وسعادته، ولأن المرء لا يستطيع الانفكاك عنها، وهي مؤثرة فيه تأثيرًا كاملًا على الحدين السلبي والإيجابي، أو في الخير والشر.

فالمرأة الزوجة: سكن ومودة ورحمة، وقد ذكر القرآن الكريم محاسنها، فقال عز وجل: {ومن

---

(١) المرجع السابق جـ ٩٣/٩ - بتصرف يسير.

(٢) في مسنده جـ١/ ١٦٢- وذكره الهيثمي في المجمع ٤/ ٢٨٢٤- وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الأدب (باب: ما جاء في الشؤم)، برقم (٢٨٢٤)- وابن ماجه في كتاب النكاح (باب: ما يكون فيه اليمن والشؤم) برقم (١٩٩٣)، وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات، والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٢٠٨، رقم (٣١٤٨)- والطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٣٤١- والخطيب في موضح الأوهام ١/ ٩٢.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير جـ٥/ رقم (٤٤٥١)- وذكره الهيثمي في المجمع ٣/ ١١٠ وعزاه إلى الطبراني، وقال: فيه راو لم يسم، وبنحوه رواه أبو دواد في كتاب الأدب (باب حق المملوك) جـ٥/ ٣١٢ رقم (٥١٦٢، ٥١٦٣)، وقال المنذري: فيه مجهول، وقال من طريق آخر: مرسل لأن الحارث بن رافع تابعي.

(٥) في السنن الكبرى جـ ٨/ ١٤٠- كتاب القسامة.

آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} سورة الروم آية (٢١) .

والمرأة الأم: هي التي أنزلها الله تعالى أكرم المنازل، وأوصى ببرها والعطف عليها، وجعلها الرسول صلى الله عليه وسلم أحق الناس بحسن الصحبة فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول صلى الله عليه وسلم، فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: "أمك" قال: ثم من؟ قال: " ثم أمك " قال: ثم من؟ قال: " ثم أمك " قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك ". وقال تعالى: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها} سورة الأعراف آية ١٨٩.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد على برها في الحديث المشهور[١]، فالمرأة أمام هذه المحاسن، ومع المهام الكبيرة التي تنهض بحملها مما لا يستطيعه الرجل أو يقدر عليه، يتفاعل بها ولا يتشاءم، أو هي أعظم ما يتفاءل به في هذه الحياة.

ولا شك في أن دور المرأة بارز في الحياة سواء كانت أمًّا أو زوجًا أو بنتًا وإذا كان التشاؤم بالزوجة الصالحة ليس واردًا، فمن باب أولى عدم التشاؤم بالأم والبنت والأخت.

وأما الفرس: فإن مدح الشارع للخيل يبعد التشاؤم عنه، وليس هناك في سائر الحيوان أعظم تشريفًا ومنزلة منها بعد أن خصها الله عز وجل بالذكر في قوله: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم} سورة الأنفال آية ٦٠ فهي كما قال القرطبي: أقوى القوة وأشد العدة، وحصون الفرسان وقد خصها الشارع بالذكر تشريفًا وأقسم بغبارها تكريمًا، فقال: {والعاديات ضبحا} الآية[٢] .

كما نوه بها الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري في صحيحه قال: "الخيل معقود بنواصيها الخير، الأجر والمغنم إلى يوم القيامة"[٣].

قال الحافظ ابن حجر: واستدل به- يعني هذا الحديث- على أن الذي ورد فيه من الشؤم على غير ظاهره[٤] . ولا شك أن الخير معقود بنواصيها كما جاء في الأحاديث الصحيحة كحديث: "الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة"[٥] ، وحديث: "البركة في نواصي الخيل"[١] ، قال

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ٨/ ٣٦، ٣٧.

(٣) في كتاب فرض الخمس (باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: أحلت لكم الغنائم) جـ٤/ ٥٠.

(٤) فتح الباري جـ٦/ ٥٦.

(٥) رواه البخاري في كتاب المناقب (باب: سؤال المشركين أن يريهم الرسول صلى الله عليه وسلم آية) جـ٦/ ١٨٧.

القاضي عياض: إذا كان في نواصي الخيل بركة فيبعد أن يكون فيها شؤم[٢] . وقال الحافظ ابن حجر: من ربطها في سبيل الله، وأنفق عليها احتسابًا كان شبعها وجوعها وريها وظمؤها وأرواثها وأبوالها فلاحًا في موازينه يوم القيامة[٣] . فهي كما قال الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام: "الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر "[٤] .

وإذا أريد من الفرس وسيلة الانتقال عامة، فهي إن وقع منها شر حينًا، فإن نفعها لعظيم في سائر الأحيان، فبدونها لا نستطيع طيَّ المسافات، ولا أداء الأعمال كما ينبغي، ولا المحافظة على المواعيد بعد أن اتسعت رقعة الحياة هذا الاتساع الكبير، وبعد أن أصبحت ضرورات المجتمع تربط القريب بالبعيد، وتتشابك المصالح بين أهل البلد فضلًا عن أهالي القارات حتى أصبح أهل الأرض جميعًا كأنهم في قرية واحدة ينتفع قاصيهم بدانيهم، ويتعامل شرقيها مع غربيهم، وبدون وسائل الانتقال لا تتحقق شيء من هذه المنافع، فلا ينبغي أن تتشاءم بسقوط طائرة عن ركوب الطيران، فإننا نرى ضرورة انتقالنا بهذه الوسيلة عبر القارات على الرغم من وقوع بعض حوادث الطيران، وإنها لوسيلة انتقال جديرة بالتفاؤل لا بالتشاؤم، وجديرة بالسعي إليها والانتفاع بها لا بالعزوف عنها وتركها.

وأما الدار: فما أكثر الدور الواسعة، وما أكثر رضا أهل كل دار بها حتى ولو كانت صغيرة، وما أكثر نفع الدار تحمي من الحر والبرد والأمطار والأخطار، فإن النفس تسكن إليها وتطمئن حتى ولو كانت كوخًا صغيرًا أو عشًّا من جريد أو حطب وبدونها لا يكاد يعيش الإنسان.

وقد امتن الله تعالى على عباده بذلك في قوله: {والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا} سورة النحل/ آية ٨٠.

فكيف يتشاءم بهذا الخير المتمثل في الدار ينعم بها كل إنسان؟ ولئن وجد فيها بعض شر في بعض الأحيان فإنه قليل ونادر بالنسبة لما في البيوت من خير، فكذلك هي جديرة بالتفاؤل وليس بالتشاؤم.

وأما الخادم: فبدونه لا تستقيم أمور كثيرة لبعض طبقات المجتمع، بل قد لا تستقيم لهم حياة هادئة؛ إذ يقوم هذا الخادم بأعمال يستنكف عنها السيد أو صاحب البيت، وقد تذهب بمروءته بين

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب: الخيل معقود في نواصيها الخير جـ ٦/ ٥٤- فتح الباري.

(٢) فتح الباري جـ ٦/ ٥٥.

(٣) المرجع السابق.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب: ٤٨) جـ ٣/ ٢١٧، وفي كتاب المناقب (باب: ٢٨) جـ ٢/ ١٨٨- وفي كتاب التفسير (باب ٩٩- ١٠٠) جـ ٦/ ٩٠- وفي كتاب الاعتصام بالسنة (باب: ٢٤) جـ ٨/ ١٥٨.

الناس، فقيامه بهذه الأعمال التي لا يستغنى عنها المجتمع تجعله أهلًا للتفاؤل به، والإحسان إليه والسرور به، لا للتشاؤم والخوف منه، فالله سبحانه وتعالى يقول: {ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون} سورة الزخرف آية ٣٢، فوجود هذه الطبقة في كل مجتمع رحمة من الله تعالى بهذا المجتمع فكيف يتشاءم منها؟

وعلى المرء حينئذ أن يحرص على جانب الخير والسعادة والهناء، فيتعامل مع هذه الأشياء، أو هذه الأمور بما يدفع شرها، وبما يحول بينها وبين ضررها الطارئ عليها بما يجلب له النفع والهناء، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في معاملة نسائه؛ إذ يقول: "خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"(١) وفي سيرته صلى الله عليه وسلم مع أمهات المؤمنين مثل يقتدي به، وهو صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة في كل الأمور للناس جميعًا.

الأضرار المترتبة على التشاؤم بالنسبة للفرد والمجتمع

ويمكن تلخيص التشاؤم بأنه النظر إلى الحياة بمنظار أسود. ولا شك في أن ذلك يسبب القلق والكآبة والتوتر واهتزاز الشخصية، ويورث انقباض النفس وسوء الظن والغم الدائم، أو الغم في الحاضر وتوقع الشر في كل حين، وقد يؤثر سلبًا على رغبة المرء في التواصل بين الناس والبعض الآخر، أو أفراد المجتمع بعضهم مع بعض وما يؤدي إليه من تقطيع أوصال الجماعة، بل قد يشل قدرة الإنسان عن السعي والضرب في الأرض، فضلًا عن تعطيل قدرته على احتمال المكاره، وعلى الجهاد الدائم والكفاح المتصل.

وقد أمر القرآن الكريم بالسعي في الأرض طلبًا للرزق وإثراء الحياة، كما أمر بالعبادة في قوله تعالى: {فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله} سورة الجمعة آية ١٠، وقوله تعالى: {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} سورة التوبة آية ١٠٥، وقوله تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم} سورة الأنفال الآية ٦٠.

علاج التشاؤم في ضوء علم النفس والشريعة الإسلامية

مما سبق يتضح أن التشاؤم مرض نفسي وإيحاء خارجي، ومقاومة الإيحاء إنما تكون بإيحاء

---

(١) رواه الترمذي في كتاب المناقب (باب: فضل أزواج النبي ص) جـ ٥/ ٧٠٩ برقم (٣٨٩٥)، وقال: حسن غريب صحيح- وبلفظ (خياركم خياركم لنسائهم)، وقال عنه الترمذي: حديث حسن- وأخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح (باب: حسن معاشرة النساء)- وكذا الحديث الآخر، وقال في الزوائد: إسناده على شرط الشيخين- وأخرجه الدارمي ٢/ ١٥٩ - والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٦٨- والطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٣٦٣ برقم (٨٥٣)، وابن حبان- ترتيب ابن بلبان- جـ ٩/ ٤٨٤ رقم (٤١٧٧).

مثله، فلا يفل الحديد إلا الحديد، وحين يتشاؤم المرء من شيء يمكنه دفع هذا الإيحاء بالنقيض، فإذا دخل في نفسه أن هذا مصدر شر أوحى إلى نفسه أنه مصدر خير، فإذا رأى مريضًا أوحى إلى نفسه أنه سليم، أو أنه كان قبل ذلك سليمًا، وأنه سيعود بعد ذلك سليمًا كما كان، فتستقر في نفسه السلامة لا المرض، ومثل ذلك ما يقوله أو يفعله عامة الناس حين يكسر إناء أو كوب، فإنهم لا يتشاءمون بهذا الكسر، ولا يتوقعون الشر منه، ولا يخافون الضرر في المستقبل، بل يقولون (خير) ويسرون بذلك ويقولون: انكسر الشر، أو (أخذ الشر وراح)، وهم بهذا يحولون التشاؤم إلى تفاؤل.

ولقوة النفس الداخلية، وللشخصية القوية في المؤمن قدرة على هذا التحويل، بخلاف النفوس الضعيفة التي تهزها أضعف تهتز لأضعف الرياح وتتجاذبها العواصف، فإنها تتشاءم أو تتوهم، ويصاحبها هذا التشاؤم فيصيبها بعدم التوازن، وضعف الإدارة واهتزاز الشخصية، على نحو ما أوضحناه قبل قليل.

وعلماء نفس الشخصية ينظرون إلى التفاؤل أو التشاؤم بوصفهما خلفية عامة تحيط بالحالة النفسية العامة للفرد، وتؤثر هذه الحالة أيما تأثير على سلوك الفرد وتوقعاته بالنسبة للحاضر والمستقبل[١] . ويرى فرويد أن التفاؤل هو القاعدة العامة للحياة، وأن التشاؤم لا يقع في حياة الفرد إلا إذا تكونت لديه عقدة نفسية، والعقدة النفسية ارتباط وجداني سلبي شديد التعقيد والتماسك تجاه موضوع ما من الموضوعات الخارجية والداخلية، فأنت متفائل إذا لم يقع في حياتك حادث يجعل نشوء العقد النفسية لديك أمرًا ممكنًا، ولو حدث العكس لتحولت إلى شخص متشائم، بما يدفع الفرد إلى التوقع السلبي للأحداث القادمة، ويظل ينتظر الأسوأ منها، ويتوقع الشر والفشل وخيبة الأمل، ويستبعد ما خلا ذلك إلى حد بعيد[٢] .

وقد استخدم علم النفس العلاج بالإيحاء، لما له من دور في تكوين المعتقدات والأفكار والآراء[٣] ، والعلاج بالإيحاء يعين على التحرر من بعض المعتقدات الخاطئة، كما أنه كبير النفع في علاج بعض الحالات الخفيفة التي لا يكون فيها أصل الاضطراب بعيد الغور، وفي علاج متاعب الحياة اليومية التي تسبب القلق والانقباض والأرق[٤] .

---

(١) التفاؤل والتشاؤم- المفهوم والقياس والمتعلقات، ص ١١-١٢ د. بدر محمد الأنصاري، جامعة الكويت، ١٩٩٨م، مجلس النشر العلمي.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أصول علم النفس، د. أحمد عزت راجح، ص، الناشر المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر القاهرة.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٩٨- بتصرف.

ويوجه علم النفس الفرد إلى عدم التحسر على ما فات، وترك التوجس مما هو آت، ويطلب إليه تدريب النفس على التركيز في الحاضر، دون إسراف في تأمل الماضي
والمستقبل لذاتهما تأملًا يغشاه القلق، وأن يتعلم حل المشكلات بالطرق الصحيحة، وتعد معرفة النفس والاستبصار فيها من أولى دعائم الصحة النفسية، ورسم مستوى الطموح وفق الحقيقة لا وفق الخيال " ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه" واصطناع الحيل للتخفيف من المتاعب اليومية، ولا شك أن الاندماج في الناس والاشتراك معهم يمد الفرد بأفكار جيدة، ووجهات نظر مستحدثة، تعينه على تصحيح أفكاره ونبذ تصوراته الخاطئة التي يخلقها الخيال، بالإضافة إلى المحافظة على صحته الجسمية، فالإرهاق أو المرض المسمى يخفض من قدرة الفرد على مقاومة الضغوط النفسية والاجتماعية التي يتعرض لها(١) .

أما الشريعة الإسلامية فقد عالجت التشاؤم منذ أربعة عشر قرنًا بذات العلاج الذي عالجه به علم النفس في العصر الحديث، بل تعدته وتفوقت عليه حين تجاوزت نظرته السطحية المادية إلى النفس الإنسانية- تلك التي وقفت بالإنسان عند حدود مطالبه الدنيوية المحدودة، وقطعت كل صلة له بقيم السماء وحقائق العلم الأخروي- فقد نظرت الشريعة الإسلامية إلى النفس الإنسانية نظرة عميقة مستوعبة لكل مطالبها وحاجاتها المادية والروحية معًا(٢) .

فوجهت المسلم أولًا إلى تقوية إيمانه بالتوكل على الله باعتقاد أن الأمور كلها تجرى بأمره ومشيئته: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} سورة الطلاق آية ٣ ، {وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين} المائدة ٢٣، {وعلى الله فليتوكل المتوكلون} إبراهيم ١٢، {إن الله يحب المتوكلين} آل عمران ١٥٩، {ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم} الأطفال ٤٩.

ومعناه: أنه تعالى عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه، والتجأ إلى ذمامه وحماه. وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره. وقال عز وجل: {إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقًا، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه} العنكبوت ١٧.

وفي الحديث: "إذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا"(٣) .

وقال ابن مسعود: وما منا إلا من تطير ولكن الله يذهبه بالتوكل(٤) .

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٨، ١٥٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢- بتصرف.

(٢) راجع (نظرية التحليل النفسي عند فرويد في ميزان الإسلام) تأليف د. سعد الدين السيد صالح، ط ١٩٩٣م، مكتبة الصحابة.

(٣) عزاه ابن حجر، في الفتح، جـ ١٠/ ٢١٣، إلى ابن عدي عن أبي هريرة بسند لين.

(٤) عزاه ابن حجر، في الفتح، جـ ١٠/ ٢١٣، إلى أبي داود والترمذي وصححه هو وابن حبان.

وعند عبد الرزاق من حديث النبي صلى الله عليه وسلام: " ثلاثة لا يسلم منهن أحد الطيرة والظن والحسد"، قيل: ما المخرج منها يا رسول الله، قال: " إذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق"[١] .

وقال صلى الله عليه وسلم: "عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل: لي هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا[٢] يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب " قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: " هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون "، فقام عكاشة وقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم اجعله منهم "، فقام آخر فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال صلى الله عليه وسلم: "سبقك بها عكاشة"[٣].

ففي هذا الحديث وصف خاص للسبعين ألفًا الذين يدخلون يوم القيامة بغير حساب ولا عذاب بتمام التوكل، بأنهم لا يسألون غيرهم تلذذًا بالبلاء ولا يتطيرون، أي: ولا يتشاءمون كالجاهليين القدامى وكثير من أتباعهم اليوم، فمن فعل ذلك، أي: تطير وتشاؤم فقد ناقض التوكل على الله عز وجل.

وفي الحديث، فضيلة الصحابي الجليل عكاشة بن محصن رضي الله عنه، وأنه قد حقق التوحيد الكامل بترك التطير والتشاؤم، وأنه من المبشرين بالجنة، وأنه يوم القيامة من الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب[٤].

فعلى المسلم إذا دخل في نفسه شيء من التطير أن يقول كما قال السلف: "اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك"[٥] ، فيزيل عن نفسه التشاؤم والتأثر، ويفوض

---

(١) في مصنفه جـ ١٠/ ٤٠٣، رقم (١٩٥٠٤)، والبيهقي في الشعب جـ ٣/ ٣٧١ رقم (١١٢٩)، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح جـ ١٠/ ٢١٣: هذا مرسل أو معضل لكن له شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه البيهقي في (الشعب).

(٢) قد يكون المراد بالسبعين ألفًا: الكثرة أو المبالغة وليس حقيقة العدد على طريقة العرب في استعمال السبعة والسبعمائة.. أي تدخل الجنة أعداد كبيرة لا تحصى كثرة أو لا يحصيها العد والله أعلم.

(٣) رواه البخاري في الرقاق ٧/ ١٩٨، ١٩٩، وفي الطب ٧/ ١٦، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ١/ ١٩٩ برقم (٣٧٤)، والترمذي في كتاب صفة القيامة ٤/ ٦٣١، برقم (٢٤٤٦)، وأحمد في مسنده ١/ ٢٧١، والبيهقي في الشعب جـ ٣/ ٣٥٧، رقم (١١٢٢)، وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٤٢٥، ٤٢٦.

(٤) راجع فتح الباري ٤٠٥/١١.

(٥) رقم (١٠٦٥) وعزاه لابن وهب في (الجامع، ص١١٠) ولابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٧)، وأحمد ٢/

الأمور لله تعالى، واثقًا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء ما ضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو أن الأمة اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ما نفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك "[١] .

وتظهر مكانة التوكل وقيمته في حياة المسلم فيما قاله صلى الله عليه وسلم: " لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا، وتروح بطانًا"[٢] .

ومعناه: اعملوا يقينًا بأنه لا فاعل إلا الله، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع إنما هو من الله، ثم اسعوا في الطلب على الوجه الجميل.

وبناء على ما سبق: فإن التوكل، كما قال الزبيدي: باب من أبواب الإيمان، وهو عماد المؤمنين، وموطن المقربين، ووسيلة المحبين، ولا يستغنى عنه عابد في عبادته، ولا ذو عادة في عادته، لأن حقيقة التوكل إنما هي اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع أو حفظها، ودفع المضار أو قطعها[٣] .

وخماصًا: جمع خميص أي ضامرة البطون من الجوع فترجع ممتلئة البطون.

والحياة الدنيا كلها تجري فيها عناصر الخير والشر فهي لا تصفو صفاءً كاملًا مستمرًا، وإنما ذلك خاص بأهل الجنة في الآخرة، والعاقل هو الذي إذا أصابه شيء من شر تذكر ما وصله من خير فيه، وليذكر المريض الذي مرض بعض الوقت أنه نعم بالصحة سنوات وسنوات، ولا يكون كمن ينظر إلى كوب نصفه ممتلئ ونصفه فارغ، فيقول: إن الكوب فارغ، بل يرجح الجزء الممتلئ فيعتبر الكوب ملآنًا، وكذلك الحياة مع المرأة، فهي وإن أساءت وقتًا وأضرت يومًا، فقد أحسنت أوقاتًا كثيرة ونفعت أيامًا عديدة، ولو أن الشر غلب عليها، ما تحملها الإنسان، ومثل ذلك الدار والفرس، بل حاول الاستغناء عنها، فاستمرارية حياته معها دليل على أن خيرها

٢٢٠، وقال: إسناده حسن.

(١) موضح الأوهام للخطيب ١/ ١٨٤- ورواه الترمذي بنحوه في كتاب صفة القيامة (باب: ٥٩) رقم (٢٥١٦)، جـ ٤/ ٦٦٧، وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه أحمد في مسنده جـ ١/ ٢٩٣.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد (باب: في التوكل على الله) برقم (٢٣٤٥) وقال: حسن صحيح- وأحمد في مسنده جـ١/ ٣٠، ٥٢- والبغوي في شرح السنة ١/ ٢٤٠- والحاكم في المستدرك جـ ٤/ ٣١٨- وصححه ووافقه الذهبي- ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد (باب: التوكل واليقين) برقم (٤١٦٤)- وأبو يعلى في مسنده جـ ١/ ٢١٢ برقم (٢٤٧).

(٣) إتحاف السادة المتقين، شرح إحياء الدين جـ١٢/ ١٤، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان ط١، ١٩٨٩م.

يغلب شرها، ويؤكد هذا ما رواه مسلم في صحيحه[1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر. وفي رواية "رضي منها غيره".

ومعناه: لا يبغض مؤمن مؤمنة، ولا يبغض زوج زوجته؛ لأنه إن رأى فيها شرًّا فعليه أن يغلب عليه ما فيها من خير، وإن وجد فيها خلقًا يكرهه فإن فيها خلقًا يرضى عنه، فقد تكون شرسة الخلق ولكنها متدينة أو عفيفة أو نحو ذلك.

وقد أثنى الإسلام على دور المرأة في الحياة، وساواها في ثواب العمل مع الرجل قال تعالى: {من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة} سورة النحل آية ٩٧.

خلاصة وتعقيب:

هناك عادات وأعراف تختلف من بيئة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، وهذه العادات والأعراف قد تورث الخير والتقدم والرقي والتطور لخير البشرية: كحب الخير للناس، والتعاون والتآلف بينهم، والنصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وانتفاع بعضهم ببعض بالمعاملات الحسنة والعادلة، وهذه العادات يحث عليها الشرع ويثني على صاحبها، ويعده بالجزاء عليها بأحسن منها، مصداقًا لقوله تعالى: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} سورة الرحمن آية ٦٠.

وأدنى مراتب هذه المعاملة الحسنة المحمودة: الكلمة الطيبة، أو أن تلقى أخاك بوجه طلق، فذلك يبعث في النفس الانشراح والسرور والبهجة والإقبال.

وهناك عادات وأعراف نقيض هذه العادات والأعراف، قد تغرس البغضاء والحقد والتنافر والتقاطع والتدابر بين أفراد المجتمع، كالأنانية وحب الذات وحب السيطرة، والحقد والحسد والظن السيئ، ومن هذه الأعراف التشاؤم الذي تحدثنا عنه.

وكل هذه الأعراف والعادات مركوزة في طباع البشر على نقاوة واختلاف منذ بدء الخليقة دليلًا على قدرة الخالق حيث قال سبحانه: {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم}، وعلى المؤمن أن يختار محاسنها ويدع مساوئها، وأن يغلب جانب الخير منها على جانب الشر فيها طلبًا لمرضاة الله جل شأنه، وهو مع ذلك مأمور بممارستها والتخلق بها، ولو كان ذلك على حساب مشقة النفس وتحمل الأذى، فقد حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، وعليه بعد ذلك أن يتخلق بها مهما كلفه ذلك من معاناة.

وقد تكون الحكمة في ذلك أن يستجيب الإنسان لشريعة الله، وأن يعالج طبعه ليوافق أمر الله تعالى عبادة، ووصولًا إلى الأجر والثواب، لقد كان من السهل على القدرة الإلهية أن تجعل

---

(١) في كتاب الرضاع (باب: الوصية بالنساء) جـ ٢/ ١٠٩١، برقم (٦١).

الطبيعة البشرية مستقيمة على نهجه وشرعه كما هو حال الملائكة، لكن الله تعالى أراد للبشرية أن تعبده بمقاومة الشهوات ومقاومة إبليس وجنوده، ليكون أجرهم على هذه المقاومة فوق أجر الملائكة، ولتكون منزلتهم عنده فوق منزلتها، وإن الإنسان مخلوق مكلف، وليس مما يناسب التكليف أن تركب الهداية في النفوس والطبائع كما تركب خصائص الأجسام على السواء بين كل جسم وجسم؛ لأن هذه الهداية (الآلية)- وليست المختارة- أو التي لا اختلاف فيها بين مدارك العقول والأرواح، ولوازم الأجسام والجمادات[1] . لا تأتلف مع كرامة العقل وشرف التكليف، قال تعالى: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها} سورة السجدة الآية ١٣، ومما هو في حاجة إلى المقاومة والتعديل الطبيعي ما يقع في النفس من التشاؤم، وقد عرضنا بحمد الله في هذا البحث طريق العلاج، ووصفنا الدواء بعد أن شخصنا الداء، {والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون}.

---

(١) راجع حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للعقاد، ص ١٢٦، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦م.